

الإسلام وجدلية التكامل التاريخي والحضاري في المجتمعات العربية والآسيوية

د. نور الدين بن علي الصغير
كلية الآداب والعلوم
جامعة الشارقة
(الإمارات العربية المتحدة)

المقدمة

يعدّ الخوض في مثل هذا الطرح الحضاريّ من المجازفات الخطيرة المحفوفة بالمزالق والمتاهات، كما أنّ البحث عن عناصر الانتلاف والتكامل في عالم تلفّه كلّ أنواع المتناقضات والاختلافات يعدّ أيضاً مغامرة غير مضمونة النتائج. فكيف العمل وما الحيلة ونحن نتعامل مع مشكل يعدّ الحسم فيه صعب المنال، ونعني بذلك المسألة الثقافية ودورها في بناء منظومة التقارب العربي - الآسيوي في العصر الحديث، نظراً للحضور الملحّ لأوجه التضارب والتضاد وحالات التنافر التي تغطّي حقولها المعرفية ؟

إنّ محاولة إيجاد أرضية اتفاق توحد ولا تفرّق، تقرب ولا تبعد تعتبر من أسمى الواجبات التي يفرضها منطق التعايش وتؤكد عليها فلسفة المواجهة والمثاقفة وحقيقة البناء الحضاري في عالم كثير التغيّر لا يثبت فيه الأمر على حال. ومن أؤكد واجبات المؤرّخ في هذا المجال التنظيري أن يتحمّل مسؤولية

استقراء الأبعاد التاريخية والحضارية قصد توفير أرضية التفاهم وصياغة مضامين التآلف المعرفي وتسخير وقائع الماضي لفهم الحاضر واستشراف المستقبل. من هنا، نتطرق دراستنا في حقل تحكمه مجموعة من الإشكاليات الإبستمولوجية التي تتمثل في ظاهرتين :

- ظاهرة يغلب عليها الصراع بمختلف أصنافه العرقية والإثنية ومظاهر الفقر والتخلف والحروب الدينية والصراعات الحدودية، وهذه تتغير تأثيراتها بتقلب الأزمنة وتغير الأجيال ولا يعتبر حدوثها دائم التأثير.
- ظاهرة تخفي في ثناياها نماذج النضج الحضاري وعبقورية الإبداع وسمو التجارب الروحية التي تتحكم في أقطاب حركة التاريخ، فتهدى وتزكي وترشد إلى خير السبل، إلى ما يسمو بالإنسان والإنسانية ويحقق رسالة الخلود.

ومن خلال الظاهرتين، سنتعامل مع نماذج من العالمية الثقافية لحضارات آسيا في مختلف تجلياتها الحضارية القديمة والوسيطة : الهندوسية والبوذية والكنفوشيوسية والجينية والزرادشتية والإسلامية لنتلمس سبل توحيد ما هو متعدد من خلال استرجاع الماضي والوقوف على مميزات تجاربنا وتجلية عناصر الوحدة فيها من أجل بناء قاعدة انطلاق جديدة لملمحة المواجهة المستقبلية. إن سعيًا إلى البحث عن التناغم المعرفي والوحدة الثقافية في ثنايا المنظومة الحضارية العربية - الآسيوية يحتم علينا تقديم رؤية تقوم على :

- المرجعية التاريخية للعلاقات الثقافية والتواصل الفكري،
- المنظور المعرفي الذي تحكمه الأبعاد الروحية للحياة،
- الأطر المعرفية الحضارية التي تؤسس لقاعدة تجانس مستقبلي،
- التأسيس الواعي لمنظومة تقارب واعدة تقوم على العقل المنظم والمبدع لرسم سبل المواجهة،
- تحديد عناصر المواجهة التاريخية والتحديات المشتركة التي تقوم حائلًا في وجه تشكل منظومة الوحدة.

إنّ الدّراسة التي بين أيدينا تقدّم نفسها كفاتحة لحوار ثقافي عربي - آسيوي تشدّ أطره الأبعاد التاريخية وتنظّم خبراته التجارب الحضارية وتصوغ مقالاته المستقبلية الاستشرافية تشكّلات الاستجابة للتحديات التي يفرضها الآخر. وما أظنني مستوفيا كلّ متطلبات الموضوع في هذه السّطور القليلة إلّا أنّني سأحرص على أن يكون السياق العام موجّها نحو الأفكار المحورية وشارحا أبرز معالم المسألة أملا أن يكون هذا الحوار بداية خير في التعامل مع مثل هذه القضايا الحيوية.

1 - فلسفة التواصل : قراءة تاريخيّة أنثروبولوجيّة في نمط الروابط المعرفيّة والثّقافيّة العربيّة الآسيويّة ودورها في مواجهة تحديات العصر.

أ - في حقيقة التواصل وأبعاده :

- البعد الفلسفي :

تهتمّ أوربا اليوم في إطار تكريس فلسفة التقارب بين شعوبها بصياغة فكر جديد وسياسة ثقافية رائدة تعتمد تحسيس شعوبها بوحدة التوجّه المستقبلي الذي يتمحور أساسا حول نموذج وحدة الثقافة من خلال تنوّع المسالك الثقافية، وتعرف هذه النظرية باسم (مسالك السّلت أو السلتيين - les routes de Celtes). وتعتبر صياغة هذه المنظومة مؤشّرا على مدى أهمية البعد الثقافي وتأثيره في تقريب التوجهات المستقبلية والشعور بوحدة المصير وحتمية النضال من أجل مستقبل أفضل. إنّ فكرة توحيد الشعوب ثقافيا من خلال التجارب التاريخية المتشابهة والخبرات الحضارية المتكاملة يعدّ من رهانات العصر الذي يعتمد فكرة البقاء للأقوى، وأن لا قوّة ولا عزة إلّا بالوحدة.

وفي محاولة جادة للاستفادة من هذه الفلسفة الرائدة، سنقوم بقراءة موازية في شؤون القارة الآسيوية، من خلال تتبّع تأريخية المحورين التاريخي والحضاري للفتوحات الإسلامية وبغداد - لاهور واستقراء أبرز العلامات

الثقافية والمحطات الحضارية واللقاءات الروحية العقيدية، بواسطة بعض الملاحظات التي تعتمد :

• استقراء الجانب التاريخي الحضاري مقارنة ومقاربة في تتبّع اللقاءات التاريخية العربية - الآسيوية في محطاتها الأولى زمن الفتوحات وأبرز نتائجها، ثم المحطة الثانية المحور الثقافي بغداد - لاهور زمن الانكسار الحضاري وما تبعه من حالات سقوط وانهيار وهجرة للعلماء.

• استقراء الجانب الثقافي الأنثروبولوجي لمعرفة مدى انصهار التعددية الثقافية داخل منظومة الوحدة والتآلف في مجالات الإبداع الفني والهندسة المعمارية وفنون الأدب، وذلك من أجل صياغة فلسفة وجهة نظر حضارية موحدة قادرة على رفع تحديات المستقبل وقادرة على مواجهة العولمة والحدثة في مختلف تشكيلاتها.

هذه النماذج الاستقرائية ستفحص التاريخ من خلال استعادة الزمان لتكون التجربة شاهداً على الحاضر ومستشفرة المستقبل.

- البعد المعرفي :

يرتكز التاريخ في فلسفته على دعائم تكون أسسه الحقيقية وهي : الإنسان والمكان والزمان. هذه الدعائم تمثل المنظومة الأساسية لفهم كنه التاريخ وغاياته. فهو يقوم على قاعدة من المتغيرات تتشكل من خلالها عناصر الائتلاف والاختلاف في النسيج الحضاري. وللعنصر الإنساني في هذه الجدليات الثلاثية البعد الأكثر تأثيراً فهو أصدق وقعا وأدقّ تجلياً.

وإذا أردنا فحص التاريخ، فإنّ الإنسان يكون المتهم الأول وصاحب أكبر مسؤولية باعتباره يمثل المحصلة الكلية للخبرات البشرية في أبعادها الثقافية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. والإنسان والحضارة يقومان على مبدأ التكامل في الصياغة والهدف من خلال سمو روح التجربة وتحقق مكاسبها. فهي تقوم على الأخذ والعطاء وتفضي إلى الازدهار والنماء. والخبرة

الإنسانية والثراء الحضاري يتحققان في الإفادة والاستفادة أي في المثاقفة بمختلف تجلياتها.

إن تعدد الحضارات يفضي أساساً إلى تشكّل منظومة ذات أبعاد مختلفة واتجاهات متنوعة تنتهي إلى خدمة الإنسان باعتباره الجامع المشترك الذي ينصهر فيه روح الإبداع وعمق الإنجاز. وإذا سلّمنا بهذا التنظير، فإنّ لنا في حضارات الشرق بما فيها الحضارة العربية الإسلامية خير دليل على تجذّر هذه الرّوى، ذلك أنّ البعد الإسلامي في المسألة الحضارية الشرقية يمثلّ خير موئل تنصهر فيه عناصر التشابه والوحدة لتكوّن خطاً حضارياً ميّز هذه التجربة في الماضي وشدّ إليها الأنظار في الحاضر وهيأها لأن تكون نموذجية في المستقبل. وللتدليل على هذه الجدلية الحضارية، ستكون الأبحاث الأنثروبولوجية ذات أهمية مركزية لسبر أغوار العلاقات عبر الزمن.

فما هي الحقيقة التاريخية لهذه التجربة وما مدى صلاحيتها لرفع تحديات الواقع ومواجهة المستقبل ؟ وكيف يكون الاستدلال على رسوخ قاعدتها ضمن التركيبة الثقافية أو الاجتماعية لتكون حافزاً ينمي التجربة الحديثة من حيث التقارب وتكامل الرّوى ؟

- جدلية الوحدة والتنوع :

تعدّ الدّراسات الحضارية والدّراسات التاريخية صنوين متلازمين لا يفترقان، فمن خلال التّأصيل لهذه العلاقة لا يمكن الفصل بين التوجّهين، وسنحاول، من خلال هذا الانسجام المعرفي، قراءة اللقاءات التاريخية والحضارية العربية - الآسيوية وتتبع نماذج من التجارب الإنسانية التي تحقّق التقارب من أجل صياغة منظومة التفاهم. وإذا كنّا وزّعنا دراستنا إلى مقصدين : تاريخي وحضاري، فذلك لاستشراف نتائج العلاقة بين الحركة التاريخية والحركة الحضارية.

2 - الأبعاد التاريخية المؤسسة للعصر الحديث :

يمكن استقراء الأبعاد التاريخية من خلال المحورين التاليين :

- محور الفتوحات الأولى : ويشمل أعمال الفتح الإسلامي وجهود التجار والعلماء أصحاب الفضل في الدعوة الإسلامية والرحالة الجغرافيين الذين جابوا بعض المواقع الآسيوية.
- محور بغداد - لاهور : وقد لعب فيه المغول دورين حاسمين : نكبة الإسلام وسقوط بغداد ثم الدعوة إلى الإسلام ونشره.

أ - محور الفتوحات الأولى :

كان للدولة الإسلامية التي ظهرت في المدينة وانتشرت في مختلف أنحاء العالم ثلاثة أبعاد :

- شبه الجزيرة العربية : وهو القلب النابض والمحور.
 - الجناح الشرقي : ويمثل العراق والأحواز وبلاد فارس وبلاد السند وصولاً إلى تخوم الصين ومضارب الجمهوريات السوفياتية حديثاً حتى بحر القوقاز.
 - الجناح الغربي : ويشمل مصر وبلاد المغرب والأندلس.
- والناظر في أحوال هذه الدولة، يدرك اللحمة التي شدّت هذه الأرجاء وهي :
- وحدة العقيدة.
 - عالمية الدعوة.
 - تنوّع الأهداف وشمولها.
 - ثراء المرجعية التاريخية.
 - تآلف الخبرات الحضارية.
 - الواقعية والإنسانية.
 - الآمال المستقبلية.

هذه المنظومة المتكاملة تشكلت عبر عصور طويلة تحت تأثير الكلمة الطيبة والدعوة إلى المحبة والتآخي وازدراء مظاهر العنف والتفرقة وإعلاء

رأية حقوق الإنسان والعمل على تحقيق المجتمع المثالي الذي تتألف فيه عناصر الخير وتموت عناصر الشرّ ضمن رؤية إسلامية للحياة والكون تقوم على التوازن والتسامح والاعتدال. يقول بعض المؤرخين: "إنّ أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة - أي الدعوة الإسلامية في آسيا - يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي" (1).

وقد حرص التاريخ على صياغة هذه المنظومة المتكاملة عبر فترات طويلة وحقب متعدّدة ليخلص إلى مشهد انعدم وجوده في تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة (مثال ذلك الإسلام في الصين عبر تاريخ "كويج تانج" وما عرف به المسلمون في تلك البقاع من مثالية في الأخلاق) (2) حيث تمكّن الإسلام من رفع رايتي الهدى والتقوى ومكّن الإنسان في الأرض يحكم بشريعة الخالق ويهتدي بتعاليم الدين الحنيف.

كان العالم الإسلامي يمثّل نسيجاً خاصاً تتجلى ملامحه عبر الصور المجتمعية التي صاغها الدين الإسلامي شرقاً وغرباً وقامت شاهداً عليها حضارته التي اختزلت مسافات الوجود ووحدت مختلف الأجناس البشرية في عطاء ملترزم وإبداعات متعدّدة وتجارب مختلفة أصّلت مفهوم عالمية الحضارة القائمة على الحوار والتكامل لا الصراع والتنافر (3).

في البدء، كانت الفتوحات (4) التي حقّق بها المسلمون الوحدة عبر فلول آسيا الصعبة ومجاهل السند المترامية بتعدّد شعوبها وتنوّع عقائدها واختلاف أجناسها وعمق ثقافاتهما ورسوخ هوياتها، وقد رسمت مصادر التاريخ صوراً متفاوتة عن واقع هذه الفتوحات التي مكّنت الإسلام والمسلمين من الهيمنة

(1) أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرون، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1970، ص، 378.

(2) الخالدي إسماعيل : العالم الإسلامي، مكتبة الفلاح، الكويت، 1984، ص، 26.

(3) هنتجتون صمويل : صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي، نيويورك، 1996.

(4) راجع : الطبري : تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، 1971.

البلاذري : فتوح البلدان، مكتبة السعادة، القاهرة، 1995.

ابن خلدون : التاريخ، لبنان، 1978.

السيوطي : تاريخ الخلفاء، القاهرة، 1976.

الحضارية انطلاقاً من حملات بني أمية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي في أواخر القرن الأول للهجرة من خلال الحملات الآتية :

- الوصول إلى بومباي وبهروج زمن خلافة عمر بن الخطاب⁽¹⁾،
- بداية فتح بلاد السند زمن خلافة عثمان بن عفان⁽²⁾،
- البداية الحقيقية والمركزة منذ عهد الوليد بن عبد الملك 86 هـ / 96 هـ.

ولكننا نسينا ما قام به التجار المسلمون من دور في الدعوة إلى الإسلام وتبليغ تعاليمه السمحة حتى جاءت شهادة المؤرخ الهندي (ك، م، بنكار) التي يقول فيها "عندما انتشر الإسلام في أرض العرب، أحسنا بتأثيره في كيرالا"⁽³⁾ وفي (مالابار) أيضاً، انتشر الإسلام عن طريق التجار العرب الذين كانوا يصلون من سواحل عمان والخليج العربي واستقروا في المدينة وأنشؤوا نواة لأول مجتمع إسلامي. وهناك لوحة إسلامية تعود إلى سنة 41 هـ / 661 م لا تزال محفوظة في (أرقوت) الشمالية تقوم شاهداً على ذلك. وكانت بلاد الهند تمثل الممول الأساسي للمد الإسلامي داخل القارة الآسيوية⁽⁴⁾. ويبدو أن التجارة أدت دوراً لا يقل أهمية عن عمليات الفتح من خلال دور الجاليات : "وأخذت هذه الجاليات تلعب دوراً كمراكز تبليغ الدعوة الإسلامية بطريقة غير مباشرة، فوصل الإسلام سواحل إقليم (مالابار) وسواحل إقليم السند مبكراً"⁽⁵⁾.

وتتواصل عمليات الفتح وتوطين الحضارة العربية الإسلامية في ربوع آسيا من خلال :

- محمود بن سبكتكين 392 هـ / 1001 م.
- توسع الحكم الغزنوي 397 هـ / 1006 م.
- فتح المنطقة الوسطى من بلاد الهند 404 هـ / 1012 م.

(1) البلاذري : فتوح البلدان، ص، 8.

(2) المصدر نفسه: ص، 7.

(3) الندوي مسعود : انتشار الإسلام في الهند، الدار العربية، ص، 61.

(4) الشراقوي محمد عبد المنعم : ملامح الهند وباكستان، دار المعارف، ص، 40.

(5) المصري جميل عبدالله محمد : حاضر العالم الإسلامي، الرياض، 1985، ص، 384.

- فتح المناطق الجنوبية 414 هـ / 1022 م.
- فتح دلهي وبيهار 597 هـ / 1200 م.

ب - محور الانقسام التاريخي : بغداد - لاهور :

كان للهجمة المغولية على الخلافة العباسية أسوأ الأثر حيث حصلت النكبة ووقع اضطهاد العلماء، فخدمت الحياة المعرفية وانقرض العلم الذي زخرت به بغداد وقلَّ العطاء الفكري وترهلت الإرادات وهاجرت العلوم. فكان خطّ بغداد - القاهرة غرباً وخطّ بغداد - لاهور شرقاً. هذا الخطّ الأخير مثّل أبرز محور راهنت عليه المعرفة الإسلامية في هجرتها إلى ربوع آسيا. ويعبّر هذا المحور عن انقلاب جذري في سيرة المغول الذين انقلبوا من أعداء للإسلام والمسلمين إلى حملة راية الإسلام وعلومه جاذين في نشرها في أجزاء كبيرة من آسيا شملت الصين والهند.

ومن الهند تواصل الزحف الإسلامي نحو القارة شرقاً وغرباً أيام الغوريين حيث وصل المسلمون إلى البنغال، وفي عهد المماليك تدفّق العلماء على الهند وتوطّدت علاقاتها بالبلاد الإسلامية خاصة بينها وبين العراق، ثم كان دور الدولة الخلاجية 689 هـ / 1290 م. والدولة التغلّقية 720 هـ / 1321 م والأسرة اللودھية في سلطنة دھلي 849 هـ / 1446 م، وأخيراً جهود المغول بداية من بابر المغولي 932 هـ / 1525 م لتبلغ النهضة الدينية ذروتها بداية من 1060 هـ / 1649 م، ومن هذه الفترة تبدأ سياسة الاستعمار الانجليزي ليدخل المنطقة في دوامة المواجهات ومنها تأخذ السياسة الانجليزية أشكالا عديدة في التعامل مع الإسلام في شبه القارة الآسيوية.

أما تاريخ الإسلام الحديث في هذه البقاع، فانه يتجلى من خلال أعمال رواد الإصلاح والمنظرين للفكر الإسلامي المدافعين عن المسلمين في كيانهم وعقيدتهم، من هؤلاء نذكر : أحمد خان ومحمد إقبال ومحمد علي جناح وأبو الأعلى المودوي.

كما ساهمت الجمعيات العلمية والدعوية التوعوية في رفع معنويات المسلمين وشدّ أزرهم ودعم يقظتهم، ومن هذه الجمعيات نذكر : جمعية ندوة العلماء وجمعية حماية الإسلام وجمعية الخلافة والجماعة الإسلامية.

إن تقديم هذا النموذج للحضور الإسلامي في شبه القارة الآسيوية وقضاياها في الهند يقوم مثالا ويكون عينة تشهد على بقية النماذج ذات الصلة بالمسألة الإسلامية في آسيا مثل :

- * المد الإسلامي في كشمير،
- * الإسلام في جمهوريات الاتحاد السوفياتي (سابقا)،
- * الإسلام في ماليزيا واندونيسيا والفلبين،
- * الإسلام في أفغانستان.

ويصل بنا التدليل على العمق الحضاري الإسلامي في ربوع آسيا إلى معرفة الجذور الفكرية للثقافة والمعرفة التي كرّسها المسلمون وطوّروها في مختلف المدارس والتوجهات العلمية والفلسفية التي عرفتها هذه البقاع من العالم والتي من شأنها أن تكون دليلا على الصلات الوثيقة بين الحضارتين : الشرقية العربية الإسلامية والشرقية الآسيوية. كما أن تتبّع عمليات التلاحق العلمي المتبادل بين المسلمين في الهند والصين والمسلمين في البلاد العربية يبيّن النتائج التي تحققت في هذا المجال، بالرغم من كون أن البعض ينظرون إليها على أنها فاشلة، وأن الحضارة الصينية المعودة نموذجاً للحضارة الآسيوية كان نصيبها مثل الحضارة العربية الإسلامية التي بقيت مغمورة ولم تحقّق ما عرفه الغرب اليوم من تطور حضاري. ولئن كان النجاح والإخفاق وجهين مختلفين لحالتين متناقضتين، فإن الأسباب لا تخلو من تشابه وتقارب في العمق، وقس على ذلك بقية القضايا. والسؤال الذي يطرح عادة هو : لماذا لم تنجح الحضارات الآسيوية في تحقيق ما حقّقه أوربا بالرغم من أسبقيتها في مجال العلم والتقاليد المعرفية ؟ وإذا كان هذا قاسما مشتركا معبرا عن ظاهرة الإخفاق، فإن للإخفاق كما للنجاح تَوَاصلا وتأثرا، وعمقا حضاريا يدفع إلى الأمام أو يشدّ إلى الخلف، خاصة وأن الغرب الذي تقدّمنا بقي يهدّدنا في ذواتنا وهويّاتنا، ولا بدّ من إعداد العدة لمواجهة كما ينبغي. إن معرفة السلبات والإيجابيات تتطلّب منا البحث في الأصول وتقصّي العمق التاريخي للعلاقات الفكرية لمعرفة القاسم المشترك بين الحضارات الشرقية القديمة والإسلام، وهل

بإمكان هذه العناصر إذا أعدنا صياغتها أن تمكّننا من رفع التحدي. فما مظاهر الإثراء الحضارة الإسلامية في آسيا وما دورها في تحقيق التآلف وتجاوز الاختلافات لدعم المواجهة ؟

3 - ثراء التجربة الحضارية الإسلامية

إنّ فهمنا طبيعة الحضارات ومساراتها، وما تمرّ به من فترات قوّة وضعف، ومدى إسهامها في صنع متطلبات الحياة اليومية للإنسان وما كانت عليه من اتصال وتأثر متبادل من شأنه أن ييسّر لنا سبل استيعاب فترات الصّدق في العطاء ونبل المساهمة من أجل تمكين الإنسان من تحقيق ذاته. وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد غنمت من الحضارات الأخرى عن طريق الترجمة، كحضارات : الهند والصين والفرس والبيزنطيين، فإنّ هذه الحضارات قد استفادت بدورها من الإسلام، من نور هدايته وعبق إيمانه ونضج عطائه، فهذا جواهر لال نهرو يقول: " إنّ وصول الإسلام (إلى الهند) جعل سبل الحياة والمناحي الفكرية تتسع ...⁽¹⁾. ويضيف غيره من المفكرين السياسيين قائلا : " إنّ المسلمين أثروا ثقافتنا وزادونا خبرات تنظيمية وإدارية ... إنّ الفترة الإسلامية أثّرت بعمق في حياتنا الاجتماعية والأدبية. إنّ ديمقراطية الإسلام التي عرفناها لا تقارن بأية تجربة من تلك التي عرفناها سابقا أو تلك التي لم نعرفها. لقد غيّرت كلّ شيء في حياة الهندوس ...⁽²⁾. وفي سياق فضل الحضارات، حتى وإن ركّزنا أكثر على الحضارة الهندية، فإنّ ذلك يعود إلى كون الهند أصبحت بدورها مركز إشعاع للإسلام في ربوع آسيا. وكلّما كان الإسلام فاعلا في ربوع الهند، فإنّ نتاجه سيكون أكثر أهميّة داخل أقطار آسيا، ويشهد أيضا على العطاء الحضاري الإسلامي في الهند من قالوا إنّ " الإسلام كان شديد التأثير في الهند بصفة خاصة، وفي بقايا آسيا بصفة عامة، وإنّ حضارته كانت عميقة الوقع طيلة العصور الوسطى ...⁽³⁾.

(1) انظر : JAWAHARLAL NEHRU, THE DISCOVERY OF INDIA, 1946, PP. 218-225.

(2) راجع : HAMAYUN KABIR, THE INDIAN HERITAGE , 1955 , P.153.

(3) انظر : MEKTA (N.S), ISLAM AND THE INDIAN CIVILIZATION , 1942, P. 13.

PANIKHAR (K.M), A SURVEY OF INDIAN HISTORY, 1947, P. 163.

إذا كان المؤرخون يرون أنّ حضارات العالم تنقسم إلى خمس مجموعات حضارية ورد من بينها مكونات الحضارة الهندية والحضارة الإسلامية : (1)

- الحضارة الهندية في شبه القارة الهندية،

- الحضارة الإسلامية وموطنها الشريط الصحراوي المداري الذي يبدأ عند المحيط الأطلسي ويستمرّ إلى سور الصين ويشمل مناطق استوائية واسعة.

من خلال هذا التقسيم يكون تأثير الحضارتين واحدا بالنسبة إلى مختلف بقاع آسيا سواء كانت مرتبطة مباشرة بالعالم الإسلامي أو بالهند. وإذا كان الشقّان يمثلان مراكز ثقل للحضارة الإسلامية، فإنّ تأثير هذه الحضارة سيكون على درجة من الأهميّة في بقية ربوع آسيا حتى وإن كانت الجذور الحضارية التي توفرّ إضافات أنثروبولوجية ثقافية أو اجتماعية مختلفة في تركيبها، فإنّ تعاملها مع الظاهرة الدينية - الثقافية الجديدة يتسم بالتناسق والانسجام اللذين يؤدّيان حتما إلى ضرب من الوحدة والتجانس الذي يقارب ولا يبعد، وهذه روح فلسفة الحضارة التي تمكّنا من توحيد المواقف وتشعرنا بوحدة مصيرنا.

وقد استطاع الإسلام توحيد النسيج الثقافي الآسيوي في فترات زمنية متعدّدة [بفضل فيض نوره الذي ألهم المسلمين] حيث أدّى محور بغداد - لاهور دورا أساسيا في صياغة منظومة علمية ثقافية ساهم في بلورتها العلماء الذين هاجروا داخل آسيا ولم يقصدوا القاهرة زمن نكبة بغداد على أيدي المغول (656 هـ / 1258 م) وما لحقها من أهوال قتلت فيها روح الإبداع، فضاعت الخلافة وضاع معها مجد المسلمين، فانتشرت الفوضى وعمّت الاضطرابات وفترت الحياة العلمية وهجر العلماء دور العلم والمعارف، فمنهم من قصد القاهرة ومنهم من ذهب إلى لاهور لتتشكّل ظاهرة علمية - ثقافية جديدة يمكن أن نعرّفها بالمحور الثقافي - بغداد - لاهور - الذي ساهمت في صنعه نكبة

(1) حسين مؤنس، الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، الطبعة الثانية، ص 220.

بغداد والهجمة المسيحية على بلاد الشام⁽¹⁾. وإذا كانت المحنة قد هزّت النفوس والمشاعر إلاّ أنّها لم تؤثر في الروح الدينية حيث أدّت الدعوة إلى الإسلام دورا طلائعيا فنشطت الدعوة إلى الإسلام واجتهد العلماء في تبليغ رسالته من جديد، فتكوّنت المدارس والمراكز وظهرت الكتب والمؤلفات التي ساهمت في توسيع دائرة المعارف الإسلامية وإعادة توزيعها وفق خارطة استوعبت أكبر مساحة في الفضاء الاستراتيجي الآسيوي. كما أضيف إلى هذا الانقلاب التاريخي عودة بعض القوى المعارضة وانضمامها إلى الإسلام مثل المغول والسلاجقة⁽²⁾ لتؤدي دورا هاما في مناصرة تركيز الإسلام ومساندة الحضارة الإسلامية.

لقد عاش القسم الشرقي للممالك الإسلامية بعد سقوط الدولة العباسية انقلابات حضارية هزّت كل النماذج القديمة للمؤسسة الدينية والمؤسسة المدنية ورسمت مفاهيم ثقافية ومعرفية محدثة بعد أن هزّت العالم الإسلامي التجارب الآتية :

- الحروب الصليبية،
- اعتناق المغول للإسلام،
- ظهور المماليك في ربوع آسيا،
- ظهور العثمانيين وعودة المد الإسلامي،
- الدولة الشيعية الصفوية،
- الحركات الإسلامية في الهند،
- انتشار الإسلام في دول آسيا: الصين وباكستان وكشمير وأفغانستان والإتحاد السوفييتي سابقا وماليزيا والفلبين.

(1) راجع :

المقريزي : السلوك لمعرفة الملوك، القاهرة، 1954، ج، 1، ص، 314.

أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، 3، ص، 200.

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ص، 73.

(2) حمادة محمد ماهر : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986.

وقد شكّلت المنظومة الإسلامية روحاً جديدة بين شعوب آسيا في ثلاث محاور أساسية :

- نشر الحضارة الإسلامية،
- الكفاح من أجل الحرية،
- مواجهة تحديات العصر مثل : العولمة والحدّات.

إنّ الأوضاع الجيوبوليتيكية للدول الإسلامية في آسيا من جهة، وللأقليات المسلمة من جهة أخرى، تفرض على القارة اتّباع سياسة التحابب والتقارب لا التنافر والتباعد في ضوء التحدّيات المفروضة على المنطقة، وفي ضوء ما أثبتته الدراسات المتقدّمة في مجال الحفريات والبحوث الأركيولوجية ودراسة الفنون، من ذلك فنون الخطّ، إذا أخذنا في الاعتبار (فنون الخطّ في العصر المملوكي) نموذجاً لتتبّع العمق الحضاري للتجربتين العربية والآسيوية في ظلّ الإبداع الإسلامي وتتبع رحلة هذا الخطّ من ربوع آسيا إلى ربوع مصر وتطوّر تجربته زمن الفاطميين، ويمكن صياغة هذا المحور ضمن (النظرية الجمالية في الخطّ بين العرب والآسيويين)⁽¹⁾. فالإلى جانب الفتح وجهود العلماء والدعوة يقف الفنّ معبراً عن كلّ صيغ التقارب والمثاقفة بين الشعوب.

واعتماداً على الإرث الحضاري والثقافي المتكامل يمكن لآسيا أن تلعب دوراً مهماً في صياغة مستقبل العالم في الألفية الثالثة. وبالعودة إلى حجم الدول الإسلامية الآسيوية وعدد شعوبها وإمكاناتها المادية والمعنوية، ونظراً إلى ما ينتج عن نشر ثقافة التقارب والتحابب والمراعاة على وحدة المصير، فإنّ بإمكان آسيا رفع التحدّيات التي تواجهها حالياً والتي ستواجهها مستقبلاً إذا عرفنا أنّ الحضارات ذات البعد الديني ستكون الهدف الأول في الصراع الحضاري على غرار : الحضارة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية، والحضارة

(1) تشمل هذه النظرية :

- نوعية الخطّ في أوروبا،
 - الخطّ في الحضارات الصحراوية،
 - الخطوط المحلية عند الأتراك والفرس.
- وتعتمد دراسة الوحدة الفنية داخل التعدد واختلاف النمطية.

الإسلامية، والحضارة الهندية ثم حضارة الصين والشرق الأقصى. وإذا استثنينا الحضارة الغربية المسيحية من منظومة المواجهة، إلى جانب اليهودية فذلك لأسباب معرفية تنظيرية صرفة يطول شرحها والتدليل على نفيها إيستيمياً. فما هي محاور المواجهة ؟ وما توقّعات الاستشراف المستقبلي لما يمكن أن نطلق عليه اسم الثقافة العربية الآسيوية ودوره في رفع التحديات المعنوية والمادية التي تهدّد المجتمعات العربية والآسيوية ؟

4 - المثاقفة العربية - الآسيوية في مواجهة تحديات العصر وتحقيق التقارب

أ - في تحديات الحداثة والعولمة

- الحداثة :

في البدء كانت الحداثة، يوم لم تكن هناك عولمة لا تقريراً ولا تنظيراً. فمن الفنّ إلى العلم، مروراً بالفلسفة والاجتماع، وقع استعمال الحداثة في كلّ ميادين العلم والمعرفة، الشيء الذي جعلها غير محدّدة المعنى ومتجدّدة مع مختلف الظواهر الإنسانية⁽¹⁾. ويبدو أنّ أصحابها تمسّكوا بنسبتها إلى الغرب وحده، وخصّوا الحضارة الغربية بهذه الظاهرة، حتى قالوا : " هي ظاهرة غربية ولن ينتجها إلّا الغرب " ⁽²⁾. وبدأ زحف الحداثة في وقت مبكر على حضارات الشرق الآسيوية، وتعمّقت الحالة في القرن التاسع عشر في مصر واليابان لتعرف فشلها مع الأولى وتحقّق نجاحاً لا مثيل له مع الثانية. ثمّ تدخل الصين التجربة وتحثّذي بها بقية البلدان الآسيوية لتصنع نمطاً حضارياً لم يعهد له مثيل. وليس المشكل في نجاح البعض وفشل البعض الآخر، بل المشكل

(1) انظر : LEFEVRE HENRI, INTRODUCTION A LA MODERNITE, MINUIT, PARIS, 1965.

(2) راجع : HABERMAS, DISCOURS PHILOSOPHIQUE DE LA MODERNITE, PARIS, 1989.

يكن في صياغة فلسفة تقارب يكون نموذج الحادثة أقرب إلى الإقتداء وأضمن للنتائج⁽¹⁾.

فالحادثة بارتكانها إلى المرجعية العربية الإسلامية - يوم كانت للمسلمين حداثتهم - وللمدّ الحداثي الآسيوي في ظلّ التغيّرات العلمية اليوم، يمكن أن تشكّل تجانسا وتناغما يقوم على الخصوصيتين : العربية والآسيوية لتتسج حادثة تستمدّ جذورها من أسس التاريخ الذي يرسم معالم التلاقي عبر الزمن في خطاب يوحد الأصول الحضارية ويستدلّ على عمق التماسك بين عناصر الأصالة والمعاصرة. وإذا أمكن تحقيق هذا المقصد فستكون هذه الحادثة حلقة زمنية مؤسّسة لرؤى تطويرية تتألف عبرها التجارب وتتوحد التوجّهات من أجل صياغة الأمثل لتحقيق الحادثة المطلقة أو الكلية والعالمية⁽²⁾.

إنّ نجاح بعض الدول الآسيوية تكنولوجيا يكمن في توفيقها اللامتناهي بين عنصري الأصالة والمعاصرة أي بين ماهو مقتبس من الغرب وما هو متأصل في التراث والعادات والتقاليد، وقد ساعدها على ذلك عدم تمسّكها بالنموذج الغربي وبعدها عن أوربا؛ إلّا أنّه في وسط شرقي غريب عن مظاهر الحادثة لا بدّ أن تترك هذه الظاهرة أثرها باعتبارها محصلة تجديد ورفض لبعض أنواع القديم، فكان الصدام بين القديم والجديد وكانت القطيعة والتواصل اللذان نتجا عن تصارع القيم ومحنة ثبات الهوية واندثارها.

ويمكن التعامل مع ظاهرة الحادثة العربية - الآسيوية من الوجهة التاريخية على ثلاثة مستويات : حادثة داخلية وحادثة خارجية وحادثة مستقبلية.

كما أنّ التعامل مع النزعتين يقتضي الاستجابة لكلّ المتطلّبات المعنوية والمادية، تلك التي أنجزت والتي لم تتجز بعد، بكلّ ما فيها من توافق وتضادّ.

(1) مسعود الضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، 1999، عدد 252، (الخاتمة).

(2) الجابري محمد عابد : التراث والحادثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، طبعة أولى، ص 16.

* الحداثة الداخلية :

ويعتبر هذا الجانب من ميزات الحضارات الشرقية تتجلى فيه كل مكونات الحياتين الدينية والمادية : فالإسلام من جانب، والهندوسية والبوذية والكنفوشيوسية والزرادشتية من جانب آخر، ديانات تعبر عن مظاهر النجاح في تجارب الأمم الآسيوية. هذه التركيبة تجعل من آسيا فضاء وحيدا وامتدادا تتجمع فيه مختلف التشكلات الحضارية لتتألف ضمن نسيج كثيرا ما تتباعد مظاهره وتتضارب أنواعه. داخل هذا التنوع تتشكل حضارة تقوم على الوحدة داخل التنوع وعلى الاتفاق في صلب منظومة يحكمها منطق الاختلاف. وسنبحث في هذا المستوى عن فلسفة للتاريخ (في نطاق تأصيل المعرفة التاريخية) تقوم على قطبي الوحدة والتقدم على غرار ما سعى إلى إثباته الفلاسفة الألمان طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين، من خلال نظرية المجموعة الكبرى : " إن الشعوب هي، على الرغم من اختلاف الأجناس والأمم والعصور، أعضاء في مجموعة أكبر. فهي ليست سوى لحظات في تطور الإنسان نحو هدفه الأعلى. وليس هذا الهدف بعيد المنال، بل موجود هنا، بالفعل، في كل لحظة، ويبرز واضحا عندما تشرق آية روحانية حقة أو حياة إنسانية كاملة" (1). وما حالة ألمانيا ببعيدة عن حالتنا في تلك الفترة.

* الحداثة الخارجية :

وفيها تعبير عن عالمية الحضارة الآسيوية وتتوزع إلى ثلاث مستويات هي : مستوى النضج الحضاري، وقابلية التطور، والتأثير والتأثر.

ولهذه المستويات دور أساسي في تفتح الحضارة والابتعاد بها عن مواقف التجمد والتفوق داخل دائرة الانغلاق والتخلف المؤدية إلى فناء الحضارات وموتها، لأن الحضارة كائن حي يحكمه منطق الارتقاء الحضاري الذي يؤمن به عالم الحضارة والتاريخ (أرنولد توينبي)⁽²⁾. وهي حضارة ذات طابع إنساني، يقاس تطورها بما يحققه هذا الإنسان : " إن الحضارة هي ثمرة

(1) الجابري محمد عابد: التراث والحداثة، ص 98.

(2) راجع : أرنولد توينبي : دراسة التاريخ،

أيّ مجهود يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته على وجه الأرض مادياً أو معنوياً⁽¹⁾. وكثيراً ما ترتبط عناصر تطوّر حياة الإنسان بمدى سعيه إلى التقرب من الآخر من أجل الأخذ والعطاء تحت شعار المثاقفة. وتعتبر المثاقفة خيراً طريق إلى الازدهار والرفق إذ تقتضي خروج النمط الحضاري عن إطاره الطبيعي الداخلي ليستوعب المؤثرات الخارجية ويتعايش معها بصيغ القبول أو الرفض أو التعايش من أجل الأمثل، على عكس ما يقول به الأوروبيون في الحداثة الأوروبية⁽²⁾ وإذا كانت أوروبياً تسعى إلى ترويح حداثتها معتبرة إياها النمط الحياتي المعرفي الأمثل والأنجح، فإنه من حق المشاركة، ومن حق الحضارات الآسيوية أن تنتج حداثات متوازية، فهي أقرب إلى التفاهم منه إلى الاختلاف بحكم توافق العناصر الآتية :

- طبيعة العقلية المشرقية،
- تشابه العادات والتقاليد،
- الوحدة التاريخية،
- تقارب المكونات الحضارية،
- الالتزام بالإرث الأخلاقي،
- توحد المرجعيات الحضارية القديمة،
- تجذر الإنسان في محيطه.

وبقدر ما يكون استيعاب أطر الحداثة وفق هذه المعطيات على أتم صورة، يكون عدم الوقوع في المطبات والانزلاق في المآهات الحضارية أكثر أمناً وضماناً وفي مأمن من الهزات التي كثيراً ما تؤدي إلى أزمات حادة في مستوى الهوية أو حتى إلى صراع القيم في غياب الأخلاق. ويمكن أن نراهن على عنصر الأخلاق في هذا المجال باعتبار التاريخ والحضارة العربية - الآسيوية تحكمها كثير من الثوابت الأخلاقية ذات المنزع الديني السماوي أو الوضعي. وبهذا المنزع نؤسس لمشروعية أخلاق تعتمد الوجهتين : روح

(1) مؤنس حسين : الحضارة، ص 91.

(2) انظر : LATOUCHE SERGE, OCCIDENTALISATION DU MONDE, PARIS, 1992.

العقائد السماوية وفلسفة الديانات الوضعية لنصل من خلالها إلى دور العقل في مساهمة القضايا ذات البعدين الروحي والمادي لينصهرا في مؤسسة الدين والعقل⁽¹⁾.

وإذا كانت الحادثة تمثل دعوة للانخراط في عالم المتغيرات دون اعتبار الثوابت، فإنّ في تراث الآسيويين بمختلف مشاربهم ما يصون وحدتهم ويجعلهم قادرين على التأقلم مع قضايا العصر ومتطلبات الحادثة في ضوء معطيات الواقع الراهن وفي المستويات التي ينشدها العالم اليوم وعلى أسس :

- العقلانية،
- الديمقراطية،
- حقوق الإنسان،
- التوفيق بين مقتضيات الأصالة والمعاصرة،
- التعامل العقلاني مع جميع مظاهر الحياة اليومية،
- صياغة استراتيجية التوازن.

وإنّ مظاهر اللاعقلانية التي يتبادر إلى البعض أنها تشدّ إلى الوراء، فإنّه سيتمّ تجاوزها بفضل ما حازته العناية بالتراث (بمعنى الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني) وسياسات التأكيد على حضوره ورسوخه في مختلف أوجه تعاملنا اليومي معه والحرص على صيانتها بمراجعتها واستغلال أوجهه النيرة، إلى جانب توفر إرادة نقده المتواصل واعتماد رؤية جديدة في المستوى الفكري المعاصر سواء كان ذلك في مستوى التوجه العربي أو الآسيوي (الصيني والياباني والكوري والتاواني والباكستاني والهندي...). وإن بعض هذه الدول قد تجاوزت عالم الحادثة إلى ما بعد الحادثة، على غرار اليابان⁽²⁾، فإنّها ستكون نبراسا تهتدي به بقية القوى الآسيوية التي تبحث عن

(1) راجع : عادل العوا : المذاهب الأخلاقية، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، 1985.

(2) الضاهر مسعود : النهضة العربية، ص، 354.

طريق الفوز بهذه الظاهرة⁽¹⁾. ويكفي حضور هذه الظاهرة الحداثية في الخطاب الإصلاحي لدى مختلف التوجهات الإصلاحية في البلاد الآسيوية وانبثاق فلسفاتها منه واعتماد نظرية الذاتية التي تقوم على كون التراث في تجذده يجد مرجعيته في نواتنا قبل غيرنا (أي شيء خارج عن الحضارة الآسيوية بمضامينها وأطرها)⁽²⁾.

وإذا استقرأنا مدلولات التراث أنتروبولوجيا عرفنا أنه أنجع وسيلة لبناء الوحدة الثقافية وضمان الاستمرارية وصولاً إلى تحقيق فكرة التقدم والنهضة. فيإدراكنا عناصر التشابه بين مختلف التجارب الآسيوية والعلاقات العضوية التي نسج خيوطها الإسلام في مجالات العلم والثقافة، نعرف أن الأمر يتعلق بمدى نجاحنا في رصد المعادلة (تراث وحداثة)، وفي مدى جعل وعينا منخرطاً في هذه المعادلة المقابلة التكاملية، ألا وهو الانخراط الواعي في الحداثة⁽³⁾، لتقديم بديل قادر على إثراء كبرى التجارب الحضارية فيما يعرف بمنظومة : حداثة المستقبل.

* حداثة المستقبل :

لئن نجح الغرب في نسج خيوط حداثته من خلال استعادة طبيعتها واستحضار كنهها من أدراج التاريخ المعتم ومراجعة مفاهيمها وإعادة أسس بنائها على أرضية فكرية نقدية غربلت الميتافيزيقيا ورفعت شعار العقلانية المغالية في تمجيد الإنسان عقلاً وقدرة، فكانت إبداعات شدت إليها أنظار المتهافتين شرقاً وغرباً، واعتبرت مقياساً نموذجياً في مصاف التمدن والتطور؛ وبعدها حل عصر ما بعد الحداثة الذي دفع بالعقل إلى انتقاد إنجازات الحداثة، فكان النقد التاريخي للحداثة الذي أثبت انعدام التلازم في عمليات الصياغة بين

(1) عبد الغفار رشاد : التقليدية والحداثة في التجربة اليابانية، بيروت، 1984.

(2) راجع : محمد مهاتير وإيشهارا : صوت آسيا، زعيمان آسيويان يناقشان أمور القرن المقبل، دار الساقى، بيروت، 1998.

(3) انظر فلسفة الحداثة ضمن أعمال:

- ماسون أورسيل بول : الفلسفة في الشرق، دار المعارف، القاهرة، 1947.
- التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة) مركز الوحدة العربية، بيروت، 1985.

الثبات والإبداع، حيث توفرّ الإبداع وغاب الثبات (القائم على مقدمات أساسية لا يتطرق إليها الشك)، وانطلقت العمليات التقييمية من أجل صياغة أفضل لعصر ما بعد الحداثة.

وفي بلاد الشرق انطلقت عمليات انفرادية لتقصّي سبل الحداثة، فكان الفشل وكان النجاح.

نجحت اليابان وماليزيا وكوريا وتايوان والصين والفلبين وباكستان في ترسيخ تراث الحداثة في شكل غربي وروح آسيوية وفشل العرب في الجمع بين البعدين : الشكل والمضمون. وانبرى الناقدون في مجالات الحضارة الآسيوية يبحثون عن أسباب النجاح والفشل، وفي هندسة الصورة المثلى التي تضمن النجاح في إطار وحدة الأسباب وتقارب المسببات. ومن الإسهامات في هذا الباب طرحنا لفكرة حادثة المستقبل العربية - الآسيوية ضمت هذه القراءة الحضارية.

وفي تقديم إجمالي وصورة شمولية لهذه القضية، يتراءى لنا أنه من شروط الالتزام لاكتمال صورة الحداثة المستقبلية العربية - الآسيوية توفرّ عنصر التلازم بين الثبات والإبداع من خلال الأسس التالية:

○ حادثة التأسيس التي تعتمد التراث وتراهن عليه متجاوزة عقدة الوقوف عند ثنائية الأصالة والمعاصرة وساعية إلى المزج بين الظاهرتين وفق جدلية تعتمد الأخذ بأسباب : الحتمية التاريخية، والمسببات عن طريق التحليل والتعليل والتركيب والاستدلال والتجربة ورفض المقاربات القياسية والاستدلال بالأثر.

هذه الإجراءات العملية من شأنها أن تجعل الثقافة الإسلامية - الآسيوية وحدة عناصر تقارب وتناغم بين مختلف النزعات والتعبيرات الحضارية. فاليابان وماليزيا والصين بلدان تمثل نماذج في استحضار التراث في مستوى الوعي التاريخي، ومن خلال تجربتهم يمكن صياغة فلسفة ثقافية آسيوية، بحضور العنصر الإسلامي، لتكريس سلوك منهجي يقوم على المعرفة التاريخية الواعية بقضايا التراث، فتنشأ ثقافة تراثية ترتكن إلى ثوابت حضارية متشابهة

في الأخلاق والسلوك والأسرة وقيمة الفرد وتأثير العامل الديني. ومن أرضية التقارب تتحدّد الثوابت ويكون الانطلاق.

○ حادثة التقارب : التي تسعى إلى التكامل وتحقيق البعد الآسيوي الذي يؤسّس للعالمية.

○ حادثة التلازم بين التراث والتجديد القائمة على : الالتحام مع سلطة النص فهما وعملا، واعتماد المعرفة التراثية الواعية، ورفض كل ما يشدّ العزيمة والارتكان إلى إرادة الإبداع التي أودعها الله في البشر، وإعادة صياغة المفاهيم السياسية وفق التجارب الآسيوية لا الغربية.

○ حادثة الإنسانية⁽¹⁾ الراضة لهيمنة الإنسان كما يحاول الغرب تكريسه من خلال فرض أنموذجه المعرفي، وهذا يقتضي إعادة صياغة التصوّر المعرفي انطلاقا من : إعادة النظر في الأطر المرجعية، وتوحيد التصوّر الحداثي في صورته العربية - الآسيوية، والتأكيد على النظرة الإبتيمية في بنية النظرة الحداثيّة، وتزكية المعرفة التاريخية ودورها في تأصيل الحادثة التراثية وتحقيق الوعي التاريخي.

وفي مجال هذا البناء الحداثي يمكن المراهنة على العناصر التالية، ومنها : البعدان الديني والاجتماعي : اعتمادا على حقيقة الرؤية للحياة التي تجعل الإنسان محور اهتمامها، ومرجعية الإبداع التاريخي والحضاري والعقلانية النقدية، والإمكانات المادية الهائلة التي تزخر بها القارة، والإمكانات البشرية.

وبعيدا عن التشاؤم من معاناة القارة من كثرة الحروب والمجاعات والتخلف والفقر باعتبارها مراحل تمثّل مقدّمات للتحوّلات في مختلف الميادين، فإنّ عناصر الثورة والتغيير آتية لا ريب فيها حتى يكون البقاء للأفضل والأكثر نفعاً للإنسانية. قال تعالى : "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ" (الرّعد 17).

(1) راجع : زكي نجيب محمود : تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، 1982، الطبعة السابعة.

وقياسا على كل ذلك، فإنه يمكن اعتبار ثلاثية النهضة العلمية التي أوجدتها الصين وطوّرها العرب وأحسن صياغتها اليابانيون أفضل مرجعية تاريخية جماعية وفق المعطيات التالية :

❖ العلم الصيني : الذي يقرّر فيه الباحث (جوزيف نيدهم) بكونه أقرب ما يكون من مماثلة الإنجاز العلمي الغربي⁽¹⁾.

❖ العلم العربي : الذي كان على امتداد الفترة الزمنية الفاصلة بين القرن الثامن للهجرة وحتى القرن الرابع عشر، كان أرقى علم في العالم متفوّقا بذلك على العلم في الغرب والصين⁽²⁾.

❖ العلم الياباني : الذي جعل التجربة اليابانية مضرب الأمثال على الصعيد العالمي، ولم تتحقّق هذه الخطوات اليابانية على سلّم النجاح المعرفي إلاّ بواسطة المرجعية التاريخية الحضارية التي تزخر بها هذه المنطقة من القارة الآسيوية⁽³⁾.

وبهذا نكون قد حدّدنا شروط النهضة وصياغة مرتكزات مشروع التحديث الآسيوي من خلال عملية تفعيل هذه العناصر ضمن مساق مستقبلي موحد وخطة معقلنة تعتمد العبقرية اليابانية والحكمة الصينية والإبداع العربي الإسلامي.

- العولمة :

منذ بداية تشكّلها في الأفق المعرفي، وهي لم تصبح بعد واقعا تاريخيا مكتمل البناء، مثّلت العولمة ظاهرة أثارت الجدل وشدّت إليها أنظار المفكرين على اختلاف توجّهاتهم. وقد حازت تجلّياتها تعريفات عديدة اعتمدت منطلقاتها على نقاط اهتمام أصحابها وتقييمهم للتطبيقات العولمية ومحاور اهتماماتهم،

1 راجع : نيدهم

NEEDHAM : SCIENCE AND SOCIETY IN EAST AND WEST . LONDON 1969
P:190

(2) توبي (أ. هف) : فجر العلم الحديث : الإسلام، الصين، الغرب، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، عدد 260، الطبعة الثانية، ص، 65.

(3) حاتم محمد عبد القادر: أسرار تقدّم اليابان، القاهرة، 1990، ص، 94 .

وكانت نقاط البحث متفرعة وذات أبعاد متعدّدة: ثقافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وفكرية وفنية. والمنتبّع لهذه الظاهرة التي رافقت بداية الألفية الثالثة يدرك أنّها شاملة في مناهجها، جامعة في أهدافها، مهيمنة في مضامينها وسائدة في كلّ أبعادها. فهي تشيّد إمبراطوريتها حول القطب الواحد وتفتح أبوابها لكلّ المجالات حتى تشكّل نسيجاً متاغماً داخل منظومتها.

وبين محاسن العولمة⁽¹⁾ ومساوئها⁽²⁾، طال الحديث وتضاربت الآراء وتداخلت المفاهيم، إلّا أنّ الذي يهمنّا من هذه العولمة الجانب المعبر عنه بموقع الآخر من هذا التيار الزاحف الذي يهدّد العالم بأسره. فكيف سيكون تشكّل العولمة في ربوع القارة الآسيوية ؟ وما موقف ثقافتها من جدلية الرفض التي تشكّلها هذه الظاهرة الغازية ؟

لم يكن العالم العربي الإسلامي ولا البلدان الآسيوية بمنأى عن التأثيرات العولمية وتحدياتها بل كان ولا يزال من أكبر أهدافها ضمن خططها الإستراتيجية. فكيف السبيل إلى استغلال فرص الخير والنماء وتجاوز سلبيات هذه الظاهرة ؟ وأيّ مسلك ستختاره الثقافة العربية - الآسيوية للتعبير عن ذاتها لتحقيق نماءها وتبتعد عن الذوبان ؟

لقد تعدّدت النظريات في هذا المجال وانقسم المنظّرون إلى ثلاثة أقسام

هي :

- المفتونون بالعولمة،⁽³⁾
- المعتدلون،⁽⁴⁾
- الرافضون.⁽⁵⁾

(1) داريوش شايعان : الانفصام الثقافي، باريس، 1993. ⁴

(2) صادق جلال العظم وحسن حنفي : ماالعولمة ؟ دار الفكر العربي، لبنان، 1999.

(3) كلوغ ميشيل : أربع أطروحات حول عولمة أمريكا، مجلة الثقافة العالمية، عدد 85، 1997.

(4) آدم محمد : العولمة وأثرها على اقتصاديات الدول الإسلامية، مجلة النبأ، عدد، 32، شباط 2000.

(5) عبدالله إسماعيل صبري: الكوكبة الرأسمالية العولمية في مرحلة ما بعد الإمبراطورية، ص، 63.

أما الشيء الذي يشدنا إلى هذه الإشكالية فيتعلق بمسألة الهوية التي تعتبر من أكبر النماذج الكلية في مجال الثقافة. يقول أحد المؤلفين في شؤون المجتمع السياسي : " إن الهدف الأسمى للعولمة هو تحطيم كل ما هو سيكولوجي جماعي، واكتساب فضاءات الهيمنة عن طريق التجارة الحرة والسوق والبضاعة في سبيل تبضيع الإنسان وخصخصته من أجل إثراء البورجوازية العالمية المتنامية " (1). ولم تكن العولمة مجرد طفرة اقتصادية ذات بعد مادي، خال من سبل الثقافة وفنونها، بل كانت منظومة ثقافية متكاملة، وهي ثقافة نافية ورافضة لبقية الثقافات الأخرى، من خلال :

* رفض الآخر ذاتا وموضوعا،

* اختراق الآخر وتهجين العقول،

* التعامل مع الآخر بطريقة لا إنسانية،

* بسط شبكات الهيمنة لطمس معلم التراث والعادات والتقاليد.

وهكذا يصبح العالم إمبراطورية غربية يترفع على عرشها الرأسماليون ويكون خدما فقراء العالم. حول هذه المسألة يدور البحث في شؤون مواجهة الثقافة العربية - الآسيوية للعولمة والوضع الذي تتخذه هذه الثقافة في عصر العولمة. يقتضي هذا الطرح استعراض كل المجالات التي يتفاعل فيها الجانبان، وهذا أمر صعب، باعتبار أن ما يهمننا ويثير ردود فعلنا يتمحور أساسا حول سبل المواجهة الثقافية وحماية (الأنا) من الذوبان. سنناقش الموضوع في مستويين استقراء وبحثا عن سبل رفع التحدي :

ب - مسألة الهوية :

يمثل عنصر الهوية مرجعية أساسية في تاريخ الشعوب الآسيوية باعتباره مصدر اعتزازها وفخرها، وهو الباب الذي لم يمثل عبر التاريخ عنصر نزاع أو غلبة، بل كان عنوان تعدد منتج للوحدة؛ إلا أن هذا الجانب أصبح اليم مهددا

(1) انظر ما كتبه : IGNACIO RAMONET : PENSER LE SIECLE, in : Le Monde : diplomatique, juillet-août 2000

بأخطار ومؤامرات العولمة التي تستهدفه من جذوره. ولمواجهة هذا الوضع يجب على الثقافة العربية - الآسيوية ما يأتي :

- إعادة صياغة مكونات المجتمع بعيدا عن تأثيرات الغرب،
- التوعية التاريخية بأطر ومجالات هذه الهوية،
- غربة المكتسبات التاريخية ومحاكمة المرجعيات السابقة،
- الحرص على التجديد والحدثة في إطار المحافظة على الأصول،
- إحياء القيم التراثية،
- توجيه البرامج الدراسية نحو ثقافة ذات بعد عربي - آسيوي،
- وضع خطة مكتملة تستهدف التعريف بمشاهير العلماء الذين خدموا هذه الحضارة ويمثلون قاسما مشتركا لدى كل الشعوب،
- إعادة صياغة مكونات الهوية : الدين واللغة والانتماء ؛ وبذلك نبتعد عن التهميش والاندثار ونتمكن من التصدي للاستتباع الحضاري الذي تنتشه العولمة.

ج - المسألة الثقافية :

في يومنا هذا اختلّت المقاييس وتغيرت القيم، والتبست التعريفات فضاعت حقيقة المفاهيم واختلطت مدلولات الثقافة حتى مسخت معانيها. فهذا قاموس (وبستر) يقدّم لنا الثقافة على أنها : " نموذج كلّ لسلوك الإنسان وإنتاجه المتمثل في الكلمات والأفعال وما تصنعه يده، وهذه تعتمد على قدرة الإنسان على التعلّم ونقل المعرفة للأجيال التالية ⁽¹⁾ .

ففي هذه المنزقات تكون الثقافة عرضة للتلف فكيف السبيل إلى صيانتها ؟ إذا كانت العولمة تنادي بتذويب الخاص في الجماعي، وإحلال الدخيل مكان الأصل، فإنّ الثقافة كانت ولا تزال أكبر ملاذ للخصوصية

(1) راجع قاموس ويبستر . WEBSTERS THIRD INTRNATIONAL DICTIONARY (culture)

والذاتية الإنسانية بكلّ تركيباتها المتجانسة التي تتماهى فيها القيم والتعبيرات الإبداعية والمشاعر والتصورات في إطار حركية متصاعدة يحكم سيرها التاريخ بعنصري الزمان والمكان والتي تعتمد الحاضر واقعا والماضي امتدادا في رحم الزمن والمستقبل استشرافا وفاعلية.

هذا هو مشهد التضاد بين العولمة والمسألة الثقافية في مختلف صيغها، لذا نجد أنفسنا في حيرة من أمرنا من حيث استعدادنا لمواجهتها. إنّ الوقوف في وجه العولمة يجب أن يتمّ عبر التنسيق الجماعي العربي - الآسيوي، فالأخطار التي تتطوي عليها هجمتها المتوحّشة تهدّد كل مصالحنا، حتى لا تزال بعض الدول الآسيوية التي قطعت أشواطاً في مدارج الرقي والتقدم لا تزال تجد نفسها مهاجمة من أخطار العولمة، مثال ذلك الأزمات الاقتصادية التي كادت أن تعصف بنمور آسيا. لذلك فإنّه بات من الواضح أنّه ما لم تقم مجموعة عربية - آسيوية متضامنة تتسق خططها التنموية وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية، وتجتهد في صيانة رصيدها الأخلاقي داخل دائرة الروح الأخلاقية الشرقية، ويتأثير من الإرث الثقافي الذي غرسه الإسلام في مختلف بقاع آسيا. لذا، لابدّ من عولمة على الطريقة الشرقية الآسيوية.

الخاتمة

إذا سلّمنا بأنّ الحضارة هوية ثقافية تقوم على التواصل والمثاقفة والتنوّع في الاقتباس، نتج عن ذلك قبول التخلّي عن فكرة الصراع والصدام وانتهاج حوار القوّة وفرض الذاتية في مواجهة الإقصاء وتجاوز الثقافات؛ وبذلك نجعل حدّاً للهيمنة الغربية المغالية في أنانيّتها.

من هنا يجب أن تكون منظومة الثقافة العربية - الآسيوية والتواصل الروحي والمعرفي طرفاً فاعلاً في هذه الجدلية من أجل بناء غد أمل. كما يجب أن نتجاوز علاقة العداء ونخطّط لمساحة أوسع للفضيلة والتسامح تتضمّن علاقة الوحدة الآسيوية (عربياً وآسيوياً في ظلّ الإسلام) بالغرب. وللعرب المسلمين كما للآسيويين في تراثهم مرجعية غنيّة بالتجارب والخبرات (في مستوى التقارب الروحي والتشابه الحضاري والالتقاء التاريخي) التي تمكّنهم من تجاوز

المطالبة النظرية إلى العمل والإنجاز من خلال المراهنة على استراتيجية توازن المصالح في مستوى كلّ الدول الإسلامية والآسيوية تجاه الغرب. وإذا كان الغرب يحذّر من التحالف العربي - الآسيوي على لسان صاحب صدام الحضارات في ذكر أخطار الكنفوشيوسية والإسلام على الحضارة الغربية، فإنّنا نوكدّ على أنّ التقارب العربي - الآسيوي في ظلّ منظومة ثقافية آسيوية يعدّ خير وسيلة لتحقيق الذات العربية - الآسيوية ولربط أواصر المحبة والإخاء في أكبر مساحة في أرض الله، ولن نكون مبالغين إذا راهنا على هذا الجانب في صياغة استراتيجيتنا المستقبلية.